المحاضرة 3 – بدايات التجديد ...

الدرس النقدي ذو طبيعة تراكمية يفيد تاليه من ماضيه سلبا أو إيجابا، وما النزوع إلى التقطيع والتحقيب إلا عادة منهجية للإلمام بالمكونات وملاحظة الطوارئ في مسار الحياة النقدية، وهكذا كان بالنسبة للنقد الإحيائي وما تلاه، فالصلة لم تنقطع أبدا بين القديم والجديد، وكثير من الأفكار، التي طرحت في مرحلة الإحياء، نجدها موجودة في مرحلة التجديد، وإن كانت تتطور بطبيعة الحال، والسمات والقضايا التي ظهرت في مرحلة الإحياء بنى عليها النقاد اللاحقون والمجددون.

لقد فتح الإحياء الأدبي والنقدي الطريق أمام الاتجاهات التي جدّت بعد ذلك وجددت في الأفكار بما أفادته من ثقافة أجنبية مستفيدة مما جد من عوالمل م تكن متاحة من قبل.

فأهم ما ميز الإحياء الأدبي والنقدي:

- العمل على تحرير الدراسة النقدية والأدبية من أغلال الحواشي، والوقوف على التفاصيل النحوية والبلاغية بغية تحقيق استقلالية الدرس النقدي.
- إحياء معايير النقد العربي القديم في أمهات مراجعه وأصوله: لدى الجاحظ والرماني وابن قتيبة وابن سلام والباقلاني والقاضي الجرجاني، وعبد القاهر، وابن خلدون، وابن رشيق الخ واستثمارها في نقد ما جد في ساحة الأدب العربي الحديث.
- توثيق النصوص الأدبية ودراستها واستخلاص أهم سماتها الفنية والجمالية، واستعادة التراث البلاغي واللغوي بما يلبي الحاجة المستجدة، والعمل على إصلاح وتغذية الذائقة النقدية والفنية واللغوية بمداومة الاطلاع على النصوص الأدبية الراقية.

أما أهم ما أثارته تلك المرحلة من قضايا فيمكن إجمالها في:

- قضية الوحدة في الشعر ومراعاة النسق.
- قضية الانتحال وتوثيق النصوص.
- قضية الأصالة و الصدق الفني، وتجنب الإحالة والكذب.
- التمييز بين الدراسة الداخلية التحليلية للنص الأدبي والدراسة الخارجية المتصلة بظروفه وفق ما استجد من مناهج نفسية وتاريخية واجتماعية.

ولن تكون المرحلة التلية في حياة النقد الأدبي إلا تعميقا منهجيا ووضوحا أكثر في الرؤية والأدوات لهذه السمات ذاتها والقضايا المثارة عينها، مستفيدة مما استجد في الحياة الإنسانية من علوم وفلسفات وحتى من حوادث وكوارث.

فقد شهد مطلع القرن تغيرات عالمية هائلة جعل من التجديد أمرا محتوما وهيأ من العوامل المساعدة ما جعل تلك السمات والقضايا تثمر وتزهر وتظهر في مدارس قائمة بذاتها، فجملة العوامل مثل انتشار

دور التعليم، والهجرة من بلاد الشام إلى مصر، ومجيء النقاد والأدباء إلى مصر، وانفتاح الساحة الثقافية وخاصة الأدبية والنقدية على الثقافات الغربية بوسائطها اللغوية: الإنجليزية، الفرنسية، الإيطالية، الألمانية، أدى حالة من التثاقف العميق سهل انتقال الكثير من الأفكار والآراء النقدية والفلسفية المؤثرة والتي بدلت الرؤية والأداة في قراءة الأدب ونقده.

وعندها بدأت صورة النقد الأدبي العربي تتغير وتأخذ ملامح جديدة على غير ما كانت عليه في مرحلة الإحياء، وكان للصحافة دور حاسم في هذه المتغيرات من خلال إذاعة تلك الأفكار والنظرات والفلسفات الجديدة، التي جددت النظرة إلى الأدب والنقد، فلم يعد النقد منحصرا في استيحاء المقاييس القديمة، التي وردت في كتب النقد العربي القديم، والنسج على منوالها بل تحول إلى ابتداع مقاييس جديدة، ومعايير متماشية مع هذا التغير الفكري الشامل والوافد من الثقافة الغربية عموما ومن ساحتها الأدبية والنقدية تحديدا.

تجاوز النقد نهج الانطباع والذوق إلى الغوص في النصوص وتحليلها ومقارنة بعضها ببعض، بل ومقارنتها بما يناظرها لدى الغربيين، واستخلاص ما يجب سده من ضعفها الفني وهشاشتها المضمونية.

وتسرب الاهتمام شيئا فشيئا إلى نقد فنون جديدة لم تكن معروفة من قبل، فظهر النقد المسرحي والنقد القصصي ونقد النثر عامة إلى جانب نقد الشعر، كما برز النقاش واحتد أحيانا حول الكثير من القضايا المشار إليها آنفا وغيرها مما استجد في الساحة الثقافية، مما أدى إلى شيوع الكلام عن النقد النظري والنقد التطبيقي والخيال في الشعر والموسيقى والإيقاع فيه، والكلام عن الترجمة من وإلى العربية وفائدتها في إثراء الأدب والنقد، كما انتشر نقاش عن النقد الذاتي والتأثري والموضوعي وما ارتبط به من صدق فني، وعلاقة ذلك بالبعد النفسي، إضافة ثنائيات فلسفية نقدية مثل الجمال والجلال في الإبداع الأدبي، والقشور واللباب في المضامين الأدبية، والعرض والجوهر في شكل الصياغة الفنية للأدب وموضوعاته.

وكان لابد من هذه الحياة الزاخرة بالنقاش والحوار وحتى الخصومات أن ترسم حدودا وتحد اتجاهات تظهر في عقبها مناهج مختلفة في نقد الأدب، فظهر من المناهج ما عمدته التاريخ والاجتماع وعلم النفس والفن الخالص، ولكل اتجاه برز نقاد أصلوا مبادئه ورسخوا خطواته.

لم يكن طريق هذا التغيير سهلا ميسرا بل تخللته جهود مضنية ظلت تتراكم عبر السنين لتثمر ما أثمرته وتفرز ما أثرناه آنفا، وسيظهر جليا عند الوصول إلى مدارس النقد التجديدية كيف أن أصول ما تدعو إليه كانت بذوره لدى طائفة من النقاد يمكن أن نسميهم نقاد البرزخ النقدي، كانوا بين الإيحاء والتجديد ومارسوا دورهم الانتقالي بين الإحياء وما صبغه من تقليد وبين التجديد وما ميزه من ثورة على القديم وقطيعة معه، فمن هم أبرز وجوه هذا البرزخ وما أهم منجزاتهم النقدية؟

إنهم جملة من مثقفي ونقاد وأدباء مرحلة حاسمة مثل إبراهيم المويلحي والمنفلوطي وقسطاكي الحمصي ومطران خليل مطران وطه حسين ومحمد حسين هيكل ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين وأحمد حسن الزيات وأحمد ضيف أمين الخولي وزكي مبارك وعبد الوهاب عزام وغيرهم كثير..

دور المنفلوطي النقدي

مع أن المنفلوطي يعد في نظر الدارسين محافظًا، لكن فإن نظراته النقدية تقيمه في جملة من جدد في الرؤية النقدية، فآراؤه المتعلقة بالشعر مثلا تنسجم مع الرؤى الجديدة فيه والتي تدعو على تجديده شكلا ومضمونا.

فالشعر عنده: "نثارة من الدر، ينظمها الناظم إن شاء شعرًا، وينثرها الكاتب إن شاء نثرًا، أو نغمات الموسيقى يسمعها السامع مرة من أفواه البلابل والحمائم، وأخرى من أوتار العيدان والمزاهر، أو عالم من عوالم الخيال يطير فيه الطائر بقادمتين من عروض وقافية، أو خافيتين من فقر وأسجاع، الكاتب الخيالي شاعر بلا قافية ولا بحر، وما القافية والبحر إلا ألوان وأصباغ، تعرض للكلام فيما يعرض له من شؤون وأطوار، لا علاقة لها بجوهره وحقيقته".

فمنبع الشعر والنثر عند المنفلوطي واحد يقوم على الخيال، ومن كان مبدؤه الخيال استطاع أن يذهب بالإبداع أنى شاء نثرا أو شعرا، ف"الكاتب الخيالي شاعر بلا قافية ولا بحر" وما "القافية والوزن إلا أصباغ وألوان تعرض للكلام فيما يعرض له من شئون وأطوار، لا علاقة لها بجوهره وحقيقته"، فحقيقة الشعر ومعياره لا تقوم على شكله بل حقيقته الخيال والجمال والصدق وما تؤدي غليه من تأثير في الشعور والإدراك.

وهو بهذا الفهم الذي لم يكن شائعا في عصره وما سبقه يقترب من أحدث ما عرفت به قصيدة النثر القائمة على أولوية الجمال والنغم والإيقاع والصدق، فبها يتحقق رأي المنفلوطي قوام الشعر.

والذي أقاموا الشعر على الوزن والقافية لم يكونوا في رأيه شعراء ولا أدباء ولا يعرفون من الشعر أكثر من شكله: إعرابا وبناء واشتقاقا وتصريفا، فقد جروا فيه على خطى العروضيين "الذين لا مناص لهم من أن يقفوا في تعريف الشعر، عند هذا القدر ما دام لا يتعلق لهم غرض منه بغير أوزانه وقوافيه، وعلله، وزحافته"، وما ينبغي فهمه من كلامه هو اعتبار الموسيقى في شعرا مكونا ليس إلا وليست الشعر كله.

فإذا جئنا إلى ثنائية اللفظ والمعنى وجدنا المنفلوطي يدلي برأي طريف جديد فحواه: "إذا سمعت بيتًا من الشعر، فأطربك أو أحزنك أو أقنعك أو أرضاك، أو هاجك وأنت ساكن، أو هدأ روعك وأنت ثائر، أو ترك أي أثر من الآثار في نفسك، كما تترك النغمة الموسيقية أثرها في نفس سامعها، فاعلم أنه من بيوت المعاني، وأن هذا الذي تركه في نفسك من الأثر، إنما هو روحه ومعناه، وإن مررت ببيت آخر، فاستغلق عليك فهمه، وثقل عليك ظله، وشعرت بجمود نفسك أمامه، وخيل إليك أنك بين يدي جثة هامدة لا روح فيها، فاعلم أنه لا معنى له". إن التقليد الساري عن أولوية الموسيقى واللفظ والشكل وكون المعاني

مبذولة ومطروحة في الطريق يعاد فيها النظر جذريا، فالأثر والجمال والسحر كلها قائمة على ما بث في الكلام من عميق المعاني لا غير، وإذا وصفت القطع الأدبية الشعرية أو النثرية بجمال أسلوبهافإنما ينصرف ذلك إلى ما فيها من معاني وأغراض.

ومن ثم فإذا وجد القارئ في العمل الأدبي استغلاقا ولفظا مضطرب الموقع فمرده إلى اضطراب المعنى في نفس قائله، "فمحال أن يعجز الفاهم عن الإفهام، ولا المتأثر عن التأثير، ولا المقتنع عن الإقناع" إلا بتلك العلة ونتيجة لها.

ولا غرابة وفق هذه الآفاق الرحبة عند المنفلوطي أن نجده متقبلا ومرحبا بتجديد لغة الأدب وأساليب صياغته، ويعي خطورة الجمود في اللغة والفكر فكان يرى موقف اللغويين أو "عبدة الألفاظ والصور" كما يسميهم ممن يتشددون في اللغة ويتشبثون بالأساليب التقليدية والتراكيب الوحشية، ويغالون في الأخذ بها "ويقيمون المناحات السوداء على كل تعبير لم تعرفه العرب، وعلى كل خيال لم يمر بأذهانهم" غاية في الخطورة لأنهم سيكونون سببا لإعراض الجيل الجديد عن اللغة وكل ما ارتبط بها من تراث فقد "ملهم الناس وملوا اللغة معهم، فتمردوا عليهم، وخلعوا طاعتهم وطلبوا لأنفسهم الحرية اللغوية التامة، فسقطوا في اللغة العامية"، فنراه بكل واقعية يرى دعوى العامية انعكاسا لموقف التشدد والتطرف في التقليد وليس نزعة تآمرية أو دسيسة استشراقية. ولعل غلبة المنفلوطي الأديب غطت على هذه الإبداعات النقدية فلم تنل حقها من الاهتمام ولذلك ظل عند الدارسين محافظا مع أن هذه الآراء تقع على قمة هرم التجديد والتقدم.

دور قسطاكي الحمصي

يعتبر قسطاكي الحمصي من أهم النقاد الذين مهدوا بشكل لافت لمرحلة التجديد، فقد كان ناقدا ذا رؤية ومنهج مستفيدا من اطلاعه على النقد الغربي واتجاهاته ومن ثم استطاع وضع أول مؤلف نقدي مستقل بفنه ونهجه هو (منهل الوراد في علم الانتقاد). عاش الحمصي بين (1858) و (1941) وهي فترة ممتدة طويلا عاصر فيها مخاض النقد وتحولاته الحاسمة من الانحطاط إلى الإحياء إلى التجديد، وإضافة إلى كونه ناقدًا فقد ألف الشعر ووسع ثقافته بفضل تعلمه الفرنسية والإيطالية.

يعد كتاب الحمصي أول ما كتب منهجيا في النقد الحديث، وكان هدفه منه أن يضع قواعد للنقد قائمة على أصول واضحة وقوانين ثابتة. لكنه إضافة إلى ذلك تناول بالتفصيل المباحث التالية:

-تاريخ النقد عند الأمم

-قواعد النقد وأصوله

-تاريخ النقد عند العرب: ودرس بعض كتب النقد العربي القديم مثل كتاب الموازنة للآمدي، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر..

وخلص إلى أن النقد عند هؤلاء لم يكن علمًا ذا قواعد واضحة كما لم يكن النقد علما بأصول وفروع فيما يبدو تمهيدا لما سيقوم به من عمل لم يسبق إليه.

-تناول النقاد العرب الذين عاصروه ويعرفون بالإحيائيين مثل اليازجي والطهطاوي وأحمد فارس الشدياق وغيرهم مبينا أنهم لم يضيفوا إلى السابقين شيئا فارقا، فقد اكتفوا غالبا بالتقليد والاتباع.

-وتناول النقد عند الغربيين إلى غاية ق 19، فذكر ما وضعوا من مفاهيم وآراء، وخلص من ذلك إلى أن موضوع النقد هو الأدب، وأن له قواعد مقررة عند سائر الأمم مثل قواعد العلوم، وتناول قضية الذوق في نقد الأعمال الأدبية، كما خلص إلى أهم ما يقوم عليه النقد من عناصر:

1-النسبة: أي نسبة الشيء إلى حقيقة الجمال السارية في الكون، ومهمة النقد أن يبحث عن هذه الحقيقة في الأدب قاصدا إليها بصدق، وهذا هو الناقد الحق، أما الباحث عن العيوب الغافل عن الحسنات فهو حاقد حاسد، ومن يستر القبيح، وينشر المليح فهو مداهن مخادع، وهو كلام يوحي بتأثر الحمصي بنظرية المثل الأفلاطونية خاصة.

2-الصدق: في العلاقة بين الأديب والمتلقي، إذا كلما صدقت إرادة الأديب في الإفهام وإرادة السامع في الفهم كان ذلك أقرب لإدراك أسرار الأدب، كما يتناول صدق الناقد في فهم الحياة ومن ثم فهم التجربة التي عاناها الأديب حتى يكون نقده قريبًا من الحقيقة.

3-التحليل: فالنقد يعتمد على عمل تحليلي يبدأ بالنظر في العبارة وفصاحتها ثم في المعاني وعلاقتها بالحياة والفائدة من تحصيلها.

4-النقد: وهو فحص الصحيح وتمييزه عن الفاسد، أو الصواب عن الخطأ، أو الصحيح بالنسبة إلى موضوعه والفاسد بالنسبة إلى غيره.

أما سلم الانتقاد ودرجاته فهي ثلاث درجات، الشرح والتبويب والحكم:

-الشرح: ويشترط فيه إيضاح العلاقة بين التأليف وظروف المكان والزمان التي ظهر فيها العمل، ثم تحديد العلاقة بين الكاتب وما كتب، أو بين الأدب وصاحبه، وهو ما اصطلح عليه الآن بتناول السياق.

-التبويب: ويبدأ بوضع المؤلف بين أمثاله من المؤلفات، ثم يفصل بين ما هو سجع وشعر، ولخطب ورسائل، وإذا وازن حرص على أن تكون موضوعات الموازنة منتمية إلى جنس واحد.

-الحكم: الذي هو هدف النقد وغايته فيرى أنه يقتضي ذكر خمسة مسائل:

+الغاية المبتغاة من العمل (قولا أو صناعة) والفائدة المرجوة منه، وشروط جودته المتعلقة بمحاكاته للمثل العليا.

+الأمر الثاني: نقد القائل (والصانع)، بالتعرف على أحوال المبدع أو صاحب الأثر، وحالته النفسية وميوله العاطفية.

+نقد موضوع العمل الأدبي.

+نقد الزمان

+نقد المكان

وبهذه الخطوات جميعا يمكن الوصول إلى حكم صحيح أو أقرب إلى الصحة في نظره.

دور مطران خليل مطران

كان مطران شاعرا ذا نزعة تجديدية مبكرة تبناها في شعره ودعا إليها غيره، متوسلا الجرائد والصحف مركزا على إعادة النظر في البناء الفني للقصيدة العربية من خلال:

1- مراعاة وحدة القصيدة، تجديد مضامين الشعر، وجعله صورة للحياة الجديدة التي يعيشها الناس في هذا العصر، موجها جموع الشعراء إلى الاطلاع على ما وصل إليه الغربيون في الإبداع الأدبي، وأن ينهلوا من مذاهب شعرهم، ووجه نقدا شديدا القصيدة العربية مبرزا تفككها وغياب أي رابط معنوي بين أبيات القصيدة الواحدة ومقاطعها، وغياب كل مقصد عام يقوم عليه بناؤها، مشبها مكوناتها بما يجتمع في أحد المتاحف من النفائس دون صلة أو رابط.

2- دعا مطران إلى فك ارتباط الشعر بالمناسبات: مثل مدح ذوي الجاه والسلطان، أو تهنئتهم أو رثائهم، أو الاعتذار إليهم.

3- طالب بإدراج الطابع القصصي في الشعر، كما مارسه بنفسه في شعره، وظهر في ديوانه.

4- لفت نظر الدارسين والشعراء إلى جوهر الشعر بالقول أنه تعبير عن الشعور الحر وتعلق بالحقيقة دون مبالغة، ووظيفة الشعر عنده التنبيه بالرمز والإيحاء بالتصوير.

وقد عضد مطران دعواته بإبداع شعري واكب هذه الأفكار غالبا مقدما الوصفة النظرية والتطبيق العملي لنظراته التجديدية.